من رسائل القديس صفرونيوس القصيرة

نعمة البنوة

من رسائل القديس
الأب صفرونيوس القصيرة

www.coptology.org

١– النعمة والتقديس صارا بيسوع المسيح إلهنا، الذي أعطانا خلاصاً عظيماً لا يمكن تقديره (تقدير اتساعه)؛ لأنه "ليس بكيل يعطي الله الروح"، لئلا تصبح النعمة الإلهية مقداراً يُقاس ويُوزَن، وهي ليست من الطبائع المخلوقة. يريد الله أن يخلص الكل وأن يؤمن الكل باسم ابنه الوحيد، ولكن قساوة طبع الإنسان تجعل الله يتمهل على كل إنسان لكي يعود إليه، وإذا رَجَعَ، فإنه يجتذبه بالعذوبة وبحلاوة المحبة، لعله يتجرَّد من قساوة الطبع ويتقدَّس بنعمة الروح القدس.

٢– ما أكثر العطايا التي يشتاق الله لأنْ يعطينا إياها، ولكن ما أقل العطايا التي نأخذها. انظروا كيف وهَبَنَا البنوةَ، ومعها ميراث ابنه الأبدي، فكيف نأخذ شركتنا في البنوة دون أن نأخذ معها ما يجعلنا فعلاً أبناء الله؟ لقد صرنا بالحق مقدَّسين في طاعة ربنا يسوع المسيح، الذي لم يكن له احتياج لأنْ يُقدِّم طاعةً نقيةً للآب، ولكنه قدَّم هذه الطاعة، أي حياته قرباناً مقبولاً؛ لكي يؤسِّس لنا عودةً من موت العصيان إلى حياة الحق.

٣– لننظر إلى أنفسنا لئلا بعد أن قُدِّمَ لنا، بسعةٍ، أن ندخل ملكوت الله، نجد أنفسنا في النهاية وقد طُرحنا خارج الملكوت مع الزناة والقتلة وكل الذين لا يخافون الله، ولا عرفوه البتة.

٤– إن الذي يعطِّل عمل الله فينا هو الأهواء التي غرستها الخطية فينا. والله ينظر إلى هذه الأمراض جميعها مثل طبيبٍ حكيم جداً، فيعطينا أن تتوقف هذه الأهواء لكي نذوق محبته، ونرى في حلاوتها ما يؤهِّلنا لأنْ نبتعد عنها. وتضعف أهواء الخطية بسبب القوة التي تغرسها محبة الله. وليس هذا هو الشفاء، إنما هو الترياق الذي يوقِف مفعول السُّم، ومع ذلك لا يعطي الحياةَ الصحيحةَ التي بلا أمراض.

٥– وبعد ذلك يَهَب لنا الطبيبُ الحكيم والإلهي أن نموت مع ابنه، فهذا هو الدواء الوحيد الذي يعيد إلينا الحياة، ويجعلنا قادرين على أن نعود إلى الصحة. فالموت مع ابنه الوحيد هو الذي يخلع الشر الكامن في داخلنا؛ لأن الله لا يعطي نعمةً للنفس التي لا تريد أن تموت، ليس عن بُخلٍ، وإنما لئلا تأخذ نعمة الحياة الجديدة وتحولها إلى حياةٍ فاسدةٍ، ويتم فينا الحكم الإلهي الرهيب: "إن كان النور الذي فيكم قد صار ظلاماً، فالظلام كم يكون رهيباً".

طوبى لمن يقبل الصليب في جسده وروحه كقوةِ شفاءٍ؛ لأنه بالصليب وحده، ينال القوة الجديدة، أي القيامة.

٦– كثيرون جرَّبوا طريق ربنا يسوع المسيح وتركوه بعد زمن؛ لأنهم جرَّبوا أن يسلكوا بقلبين، ولذلك لم يجدوا فيه ربحاً؛ لأن المخلص قال: "لا تقدروا أن تخدموا الله والمال"، ولَّما فشلوا في التجارة في الحياة الجديدة، انتقلوا إلى سلعة الموت، وباعوا أنفسهم في سبيل الحصول عليها، فصاروا مثل الذي بنى البرج ولم يكمِّل، ونال هُزأ العابرين في الطريق.

٧– الذي له قلبٌ منقَسِمٌ لا يأخذ شيئاً؛ لأن القلب المنقَسِم مثل "موج البحر" لا يستقر في مكان ولا يتحرك في اتجاهٍ واضحٍ. وهكذا، إن لم نهدأ ونستقر، لا نأخذ نعمةً من الله، وإنما نظل مثل الأجنة عديمة الكمال والتي تولد قبل أن تكتمل وتموت على الفور، أو تحيا بصعوبةٍ ومشقةٍ.

٨– لأجل ذلك، علينا أن ندرك أننا نحن أنفسنا الذين لا نقبل الدواء، ونصرخ أحياناً في وجه الطبيب الرحيم بأن الدواء مُرٌّ وصعبٌ علينا أن نشربه، فلا نتذمر إن جاء وقت المطر ولم نستفِد شيئاً؛ لأننا لم نضع البذار الصحيحة في مكانها. وما هي البذار الحقيقية سوى التخلي التام عن الذات وعن القِنيةِ وعن الأهواء، لكي نقتني حياةً أفضل، ليست مبنيةً على رمال هذا العالم الزائل، الذي يتمخض بأوجاع كثيرة، إلى أن يولد الجديد، ومتى وُلد، صارت كل اختيارات البشر الزائفة قبضَ ريحٍ

وخيالاتٍ طائشةٍ؛ لأن الذين شيَّدوا حياتهم على الرمال، متى جاءت سيولُ الموتِ وبلايا الحياة الحاضرة، جَرَفَت كل آمالهم، وجعلتهم يكتشفون أن فساد الحياة التي اقتنوها، في أنها لم يكن أساسها الله.

٩– عندما سقط الإنسان الأول، جَرَفَه الشَّرُّ إلى أمورٍ غير حقيقية، أي ليست من الله ولا تنتمي إلى الخليقة التي خلقها الله. فقد تصوَّر الإنسان أنه قادرٌ على أن يكون مِثل الله بقدراته وليس بالنعمة، وبإرادته المنفردة وليس بالشركة، وهي اتفاق المحبة بين الله، الذي من عِظَمِ صلاحه لم يضِن بالوجود على أحدٍ، بل أتى بالكل من العدم، وقَسَمَ لكل كائنٍ مقداراً من العطايا، فوهبَ للحيوانات والنباتات أن تُخلق على النحو الذي يجعل الإنسان سيداً عليها، وربَّاً نال سلطان التسلط عليها. أمَّا الإنسان الذي خُلِقَ على صورة الله ومثاله، فإنه كان يرى ذاته في الله، ويدركها من خلال الشركة مع الخالق، لكنه عندما لم يستحسن أن يبقى كما خلقه الله، وتعدَّى حدود طبيعته؛ سقطَ وطُرِدَ من الفردوس، وصار الموتُ ينشئُ فيه أهواءَ كثيرةً تجعله يتشبَّثُ بالبقاء وبالحياة الباطلة التي اخترعها لنفسه.

١٠– لأجل ذلك كله، جاء الطبيب الحقيقي بدواء جحد الذات، والتخلِّي عن الحياة الفاسدة التي خلقها الإنسانُ لنفسه، ليس حسب الصورة الإلهية الحق، بل حسب صورة الإنسان الميتة التي سادت عليها الأهواء. وقد نادى مخلصنا الصالح قائلاً: إن كان أحدٌ يريد أن يصير لي تلميذاً، فليجحد ذاته ويتبعني، ومَن لا يجحد ذاته، لا يقدر أن يكون تلميذاً. وكان ربنا يسوع يعني بهذا أنه لا يقدر أن يكون ابناً لله؛ لأن ابن الله الوحيد، جاء لكي يُتلمِذ الإنسانية ويعلِّمها كيف تعود إلى مرتبة البنوة. وكطبيبٍ حقيقيٍّ أراد أن يحدد مرض الإنسان الأصلي، وهو أن الحياة الحقيقية تأتي من الله، وليس من الإنسان. فالفرق بين الحياة التي يهبها الله، أنها حسب الصورة والمثال، وأمَّا الحياة التي صنعها الإنسان لذاته، فهي ليست حسب الصورة والمثال، وإنما حسب ما تخيَّله الإنسانُ لذاته، لا حسب ما تخيَّله عن نفسه، وهو ما ليس له كيان أو وجود. وهكذا نرى أن هبة الحياة التي وهبها الله للإنسان لم تعُد كما كانت، حسب الصورة،

بل أخذها الإنسان وجعلها عكس ذلك، وهو ما جعل الشركة بينه وبين الله غير ممكنة. وعندما رفض الإنسانُ أن يحيا حسب الصورة، فقد رفض الاعتماد على الخالق، وأنكر عليه قوته المطلقة، وصار يفتخر بسلطانه على الكائنات الدنيا التي خُلِقَت لمنفعته وخدمته. أمَّا الله، فقد تركه لذاته، و لم يعد يعطيه ما يؤهِّله للشركة، أي الروح القدس؛ لأن الاستنارة التي يعطيها الروح القدس، هي وحدها التي تؤهِّل الإنسان لأن يعرف الله، ويحيا حسب الصورة.

١١– كان الله يسكن في الإنسان قبل السقوط، وحلَّ فيه مانحاً إياه – كخالقٍ– حياةً إلهيةً تبعده عن الفساد والموت؛ لأن الابتعاد عن الله يعني انحلال الطبيعة المخلوقة التي لا تستطيع أن تعيش بدون الصلاح الإلهي الذي يسمح للخليقة بالبقاء؛ لأن الرسول وهو يعلم وَهم الإنسانية الساقطة، قال عن سلطان الله والخاص بجوهره: "حامل كل الأشياء بكلمة قدرته"، وأيضاً: "لأن قدرته الفائقة تُرى ببقاء المخلوقات" (رومية ١: ٢٠)، لأن الله الكلي الصلاح لم يترك خليقته؛ لأنه لو فعل ذلك، لعادت فوراً وبدون أي إبطاء إلى العدم، لكنه استمر يرعاها عالِماً أنه سوف يجددها.

١٢– فأيُّ أُناسٍ يجب أن نكون نحن الذين أدركتنا نعمة الله الصالحة؟ لأنه إن كان الله قد أشفق علينا ودعانا إلى تلمذة البنوة، ووهبنا شركةً صالحةً في خيرات أُلوهيته في ابنه الوحيد، فكيف نصرف العمر في اقتناء الفانيات؟ وكيف نجمع أباطيل وخيالات الحياة الزائفة البعيدة عن الله، ونجعلها الكنز الذي تعتمد عليه حياتنا؛ لأن الرب الطبيب الحقيقي قال: "حيث يكون كنزك، فهناك يكون قلبك"؟ ولأن الإنسان مخلوقٌ، فهو لا يحيا في فراغ، وإنما كمخلوق، يتلقى إمَّا العطايا الإلهية، أو ما يتصوره قلبه؛ فعلينا ألا نسعى إلى سيِّدٍ آخر سوى الله، لئلا يداهمنا الموت، ونخلع الجسد، ونقف عراةً من المجد الإلهي، ولا نجد سوى أوراق التين البالية التي لا تقوى على البقاء.

١٣– لنخلع أعمال الظلمة، أي الابتعاد عن الله، ونلبس أسلحة النور التي تقاوم الفناء. لنكن صاحين؛ لأن الصحوة هي التي تجعلنا قادرين على التوبة. وإن كان

كل ما لا يأتي من الله لا يدوم، فأيُّ عذابٍ نتوقَّعه لأنفسنا، إذا وجدنا ذواتنا فارغين لم نقتنِ الأمانة، ولا يسكن فينا الروح القدس، وأننا نتكالب على المقتنيات ظانين أن فيها حياةً، وهي ليست سوى مصنوعاتٍ تَبيد إن تخلت عنها النعمة الإلهية الصالحة.

١٤– لنقتنِ الاعتماد التام على الله، حتى وإن هيَّأ لنا دواءً مُراً، فالله الصالح لا يعطينا سوى الصالحات. وجحدُ الذاتِ صعبٌ إذا حاولناه بدون محبة الله، ورأيناه وحده دون تأمل الحياة الجديدة التي يهبها الربُّ لنا بصلاحه الفائق.

١٥– ومتى بدأت النفس تتخلى عن حياتها القديمة، في الفكر والحديث، وبدأت في التعامل مع الإخوة بروح الصبر والاحتمال، وليس بروح الكبرياء والغرور وفرض الهوى (الرأي) على الآخرين، فإن حُسن وجمال الحياة الجديدة يجعلنا نسرع بالسير في الطريق الضيق، ونراه وقد صار سهلاً طبقاً لقول الرب: "احملوا نيري عليكم، لأن نيري هين وحملي خفيف" وعند ذلك يُشرق الربُّ علينا، ويرى كلَّ شيءٍ، فإذ هو حسنٌ جداً.

+ + +